القيم عند الفارابي^(١) (٢٦٠-٣٣٩هـ.ق/٨٧٤-٩٥٠م)

د. محسن صالح^(٢)

مدخل:

من منطلق أنّ «الحكمة ضالة المؤمن»، وأنّ هناك قيماً إنسانية عالمية تستند إلى حقائق كونية جامعة؛ كان الفارابي باحثاً عن الحقيقة أنّى وُجِدَت في كتب القدماء وعقولهم، أو في بيئته الإسلامية، التي كانت

(١) الفارابي، (٢٦٠-٣٣٩هـ.ق/٨٧٤-٩٥٠م) المعلم الثاني بعد أرسطو، أحد أهمّ العقول الفلسفية الإسلامية المؤسّسة لنظام فلسفي متكامل ومؤثر. والفارابيّ النسب، من إقليم تركستان على حدود فارس، وهو لم يلق الاهتمام اللازم، ربما لعدم وضوح نسبه القومي، أو لأنه كان على خلاف فلسفي وأخلاقي وعقدي مع حكام زمانه، من «خلفاء»، و«أمراء»، ومن تبعهم. هذا، على الرغم من مكوّنه بعض الوقت في بلاط سيف الدولة الحمداني، في إمارة حلب، بعد أن هجر بغداد؛ عاصمة العباسيين سنة ٣٢٩ هـ؛ لما حصل فيها من استباحة؛ نتيجة لـ«ثورة البريدي». يُراجِع: الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان؛ تاريخ الإسلام، ط٣، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٤١٥هـ.ق/١٩٩٤م، ج٢، حوادث عامي ٣٢٩-٣٣٠هـ.ق، ص٥٩-٧٢.

ومن المرجّح أن تكون آثار الفارابي وكتابه الأساسيّة قد فُقدت في هذه الاضطرابات. إلا أن ما وصل من آثاره المميّزة في عمقها وشموليّتها، شكل أساساً للعقول اللاحقة، تنهل منها، وتستوضح المبهمات في الفلسفة السياسيّة والمنطق (سمي الفارابي بالمعلم الثاني؛ لشروحاته المميّزة على منطق أرسطو «المعلم الأول» في المنطق، وواضع أسسه ومقولته) وما بعد الطبيعّة. ويظهر هذا الأمر جلياً في الفصول الأولى لكتابه «أراء أهل المدينة الفاضلة»، الذي حمله معه من بغداد، إلى حلب، والشام، ومصر.

لذا، نرى مدى تأثير الفارابي في الشيخ الرئيس ابن سينا، حيث يقول في سيرة حياته، التي أملاها على تلميذه أبو عبيد الجوزجاني: «إني قرأت كتاب (ما بعد الطبيعّة) لأرسطو أربعين مرّة، فلم أفهم منه حرفاً... إلا بعد أن وقعت على كتاب (أغراض ما بعد الطبيعّة) لأبي نصر، فانفتح لي...». ولهذه الحادثة قصّة طريفة، يُراجع بصددها: سيرة حياة ابن سينا التي أملاها على رفيق حياته وتلميذه أبو عبيد الجوزجاني في كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، تصنيف ابن أبي أصيبعة، أوغست مولر، كونخسبرغ، سليستفيللاغ، ١٨٨٤م، ج٢، ص٢؛ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق ج. لبيزغ، لايبزغ، ١٩٠٣م، ص٤١٢؛ ابن سينا - المجموع أو الحكمة العروضية -، تحقيق محسن صالح، بيروت، دار الهادي، ٢٠٠٧م، ص١١.

من هنا، نبيّن مدى تأثير الفارابي على من أعقبه من الفلاسفة؛ ذلك لإطلاعه على فلسفات من سبقه، وقدرته على تكيف هذه الفلسفات، في بيئة حكمتها المطارحات الكلامية في أهميّة أفكار القدماء، والأخذ ببعض ما ورد فيها أو إبطالها، وتكثير من يقول بها، متجاهلين صدق بعضها ووجاهته، وخطأ بعضها الآخر وعدم صوابيّته، بحسب الموضوعات ومركزاتها، وكذلك الأغراض التي كتبت من أجلها.

(٢) باحث وكتّاب إسلامي، ومدير معهد العلوم الاجتماعيّة في الجامعة اللبنانيّة.

بجوهرها ولغتها ومقاصدها تتجاوز الحدود والأوطان، وبقيمها ودينها الحنيف عابرة لكل أصناف التمييز العنصري والثقافي.

ويعدّ الفارابي أول جامع بين آراء الحكماء (خاصة: أفلاطون، وأرسطو؛ حيث كتب كتاباً بعنوان التوفيق بين رأيي الحكيمين)، وبين البيئة العقلية لزمانه، خصوصاً في مسألة القيم، وتحصيل أولياتها الصالحة في العصر العباسي... وربما في كل عصر. مع العلم أنّ الحكمة من شروطها ابتداء المفاهيم الكليّة أو استنباطها؛ بما يسهم في تحقيق الإصلاح العملي للمعمورة، كما يقول الفارابي، في حديثه عن المدينة الفاضلة والكاملة: حيث إنّ كمالها يعني شموليّتها، فهي مدينة المعمورة، يحكمها رئيس كامل واحد. وفي هذا الصدد يطرح تساؤلاً، مفاده: أو ليست الحكمة من الحكم، أي الحكم المنطقي الصحيح وتمييزه عن الحكم الخاطيء؟ وبالتالي الصحيح واليقيني يفترض عدالة من وجوه شبه تامة، بما يعطيه قيمة عقلية عالية مقابل عدميّة قيمة الباطل وإزهاقه؟

من هنا، كانت القيم العقلية والاجتماعية والسياسية في صلب وظيفة الحكمة العملية، وإن لم تستخدم هذه الكلمة كما تستخدم اليوم، وإنّما استخدمت الأخلاق؛ بوصفها حاوية لمبادئ القيم ومحدداتها العامّة عند الفلاسفة، فمنذ أن أخذت الفلسفة دور العقل المعرفي والعملي الاجتماعي؛ لأمة من الأمم، سعت لرسم علامات الخير والشرّ، والنفع والضرّ للإنسان؛ بوصفه مخلوقاً عاقلاً ناطقاً، فكان لها بالغ الأثر في علاقته، وفهمه، وإدراكه لنوعية العلاقة مع نظيره من بني الإنسان.

من الثابت، أنّ الفارابي هو: أول من ركّز - من بين الفلاسفة المسلمين-، في مؤلّفاته، على الفلسفة السياسية، وكيفية تحصيل السعادة الإنسانية، في ظلّ حكم الفيلسوف، أو الإمام، أو الخليفة، أو المعصوم. والفارابي يعتقد أنّ التسمية ليس لها أثراً مهماً، بقدر ما تكمن الأهميّة في المواصفات التي يتمتّع بها الحاكم؛ بحيث يكون معدّاً لها بفطرته وفكره وإرادته وسلوكه. هذه المواصفات أو الخصال هي: تعبير عن القيم العقلية

والروحية، التي إذا ما توافرت في الحاكم؛ يصبح رئيساً للمدينة الفاضلة، بل رئيساً للمعمورة.

لقد وضع الفارابي جلّ جهده؛ لإيضاح هذه المسألة: «الحاكمية»، وكيفية «تحصيل السعادة»، خاصّة، أنّ معظم كتبه المنشورة تدور حول هذه القضايا. ويعدّ كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» من أهمّها، حيث صبّ الفارابي آراءه في: ما بعد الطبيعة، والمجتمعات وأقسامها، والنفس، والحاكم والشروط التي يجب أن تتوافر فيه، إضافة إلى مضادات المدينة الفاضلة. ولعلّ كتاب «فصول المدني»، بما يتضمّن من سلوك الحاكم والمحكوم والمدينة، والقيم الحاكمة (جذور الخير والشرّ ومحدداتهما، والنوازع الإنسانية) النفسية والجسدية؛ يشكّل مادّة فلسفية عميقة لدراسة موضوع القيم.

محدّدات القيم في العقل الفلسفي- أنموذج الفارابي:

تقسم النظريات الفلسفية بلحاظ إدراكها للقيم، بمعناها الأوسع والأشمل، إلى قسمين، هما:

١. النظريات المعيارية في أحكام القيم، حيث تدلّ على «الخير أو الشرّ».

٢. النظريات ما بعد المعيارية، التي تقوم على استنباط القيم وتحليلها، ولحاظ الخير الأعلى، فلا تقدّم أحكاماً قيمية مباشرة، وإنّما تحدّد الخير الأسمى أو الأعلى بشكل غير مباشر.

هذا، ويقدم الفلاسفة - في بعض الأحيان -، وصفاً شمولياً عن ماهية القيم؛ باعتبار الأمر الجيد أمراً جزئياً مرتبطاً بالثقافة.

وفي البعد الأوّل؛ أي المعيارية، يقدم الفيلسوف وصفاً عاماً لما هو خير وشرير، أو حقّ وواجب، وفاضل وجميل؛ بذاته أو بغاياته. وبعض النظريات تجيب عن سؤال الغاية أو الخير، على أنّها تحقيق السعادة أو الفرح، وهو غاية القيمة في جوهرها، مع أنّ البعض يجد في الخير والفرح قيمة

للمنفعة. وفي الوقت الذي يرى فيه بعض الفلاسفة أنّ الخير والسعادة مطلوبان بالذات، بغضّ النظر عن المنفعة المباشرة، ويعتبرون أنّ الخير والسعادة ربما يكونان بالمعرفة والفضيلة والجمال والحب والعدالة والحرية.

من هنا، تختلف النظرة بين المثال والواقع، وبين عالم العقول والنفوس وعالم الجسد والغرائز.

أمّا النظريات ما بعد المعيارية؛ فإنّها محدودة دائماً بالسؤال عن أصل الخير أو القيمة وطبيعتهما. وما الذي يمكن أن يُقال فيه: أنّه خير في الأصل، ومن حيث القيمة، ووجوب هذا أو ذاك. كلّ ذلك من أجل تحديد عقل علمي للقيم الأخلاقية التي تكون منسجمة مع منطوق الأشياء وجوهرها، وليس بالضرورة قابلية هذه المحدّدات لتطبيق عملي، وإنّما معرفي بحثي أكاديمي^(١).

ولعلّ تحديد مسألة القيم من الناحية الفلسفية؛ بوضع عنوان محدّد لها لن يُعثر عليه (كلاسيكياً)؛ لأنّ لذلك أبعاداً - كما أشرنا -، زمانية ومكانية. حيث إنّ التطوّرات العلمية المتنوّعة، والنظر إلى وظيفتها الاقتصادية، والتي استغرقت بعض الأنفس والعقول، ربما تكون قد أهملت الشروع ببحث القيم؛ من حيث ارتباطه بأصوله الخيرية الدينية أو الفلسفية، وإعادة النظر فيما يُعتقد فيه من مثالية، والتراجع عن الحماسة في التفكير أو التأمل الفلسفي.

من هنا، نشهد عصر انحطاط الفلسفة؛ لمصلحة العلوم البحتة والاقتصادية والاجتماعية، بفروعها التي أصبحت غير قابلة للحصر، حيث لم نعد، أو نادراً، ما نجد كتابات فلسفية عميقة في الأخلاقيات، ونظريات فلسفية في القيم، تتسجم مع واقع العالم المعاصر، كما نجد عند أرسطوطاليس في كتاب «الأخلاق إلى نيقوماخوس»، والذي يرى

(١) يُراجع: فرانكينا، وليام: القيمة والتقييم، في الموسوعة الفلسفية الإنكليزية، نشرة ماكميلان، لندن، ١٩٧٢م، ج٨، ص٢٢٩.

أنَّ غاية الاجتماع والدولة فعل الخير للناس والابتعاد عن الشرِّ، حيث ينصبُّ البحث على الخير المطلق ونماذجه العملية - القيمية، والسلوك الإنساني، والفضائل الأخلاقية...^(١)

إلَّا أنَّه يمكن العثور على كتابات نادرة في المراحل التاريخية الكلاسيكية، ولاسيَّما ما ورد في كتاب أبو يعقوب السجستاني(ت: ٣٥٢هـ.ق)، المعاصر للفارابي، والذي ربما يكون على معرفة به، وربما أيضاً تعاقلاً لغة وفلسفة. ففي كتابه «الافتخار»، يفرّد السجستاني فصلاً تحت عنوان «في معرفة القيمة»، حيث يقول: «ومن أعظم ما يفخر به أهل الحقائق: معرفة القيمة وأسبابها. وما يلحق بها من علاماتها وآياتها، التي أهل الظاهر عنها وعن معرفتها في غفلة، وعلمهم بها علم بعيد عن البرهان». ويعتقد السجستاني الإسماعيلي أنَّ أهل الحقائق هم: أهل الباطن؛ لأنَّهم أقدر على فصل الحكم على ما توجهه قضية الحقِّ. وأنَّ النقص إنَّما يرجع إلى حالة الوجود الضعيف؛ لعلَّة أبداعها في المعلول، وأنَّ هذا الاعتقاد يجب أن لا يجعلنا نتوهم أن ضعف القيمة أو نقصها هو في العلة؛ لأنَّ هذا وهمٌ لا يستوي والمعرفة الفطرية و«لموع آثار نفسانية». ويعيب السجستاني على الفلاسفة أنَّهم لم يأخذوا، بعين الاعتبار، وصف الله تعالى «القيمة»، فيقول: «أنظروا أيها المحرومون عن الحقائق كيف وصف الله القيمة، فقال: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (الزخرف: ٦٦)». إلَّا أنَّ ما قدّمه السجستاني من تحليل حقائق عن القيمة في الدنيا والآخرة، وعن الحساب والعذاب، إنَّما وصل إلى نتيجة كلامية غير متناقضة مع ما قدّمه الفارابي، من شرحه الفلسفي المثالي لمسألة أصل القيم^(٢).

وما أردنا إلَّا أن نتبّه على البيئة الفلسفية والكلامية التي عايشها

(١) يُراجع: أرسطوطاليس: الأخلاق، ترجمة إسحق بن حنين، تحقيق وشرح عبد الرحمن بدوي، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٩م، المقالة الأولى.

(٢) يُراجع: تحليل أو تأويل القيمة عند أبو يعقوب السجستاني «كتاب الافتخار»، تحقيق وتقديم مصطفى غالب، بيروت، دار الأندلس، لات، ص ٧٤-٨٣.

الفارابي؛ حيث كانت تزج بتنوع الاجتهادات في صدد الوصول إلى الحقيقة الإلهية، والقيم الإنسانية المعقولة؛ فكثرت بذلك الفرق الكلامية والفقهية والفلسفية... وربما إلقاء نظرة فاحصة على كتاب الملل والنحل للشهرستاني يمنحنا فرصة التأمل؛ بما كانت عليه حال مصادر الحقائق العقلية والتقويمية، ومؤداها المعقّد.

الفارابي: استنباط محدّدات فلسفية (دنيوية وأخروية) للقيم الإلهية والإنسانية:

أخذ الفارابي على عاتقه أن يخرج بتنظير فلسفي محكم في مسألة السعادة الإنسانية، وكيفية الحصول عليها، دون تعارض مع الحقائق الدينية الأصيلة. وقد نشأ هذا الإحساس بالواجب الإنساني؛ لما رآه الفارابي، من أنواع حكم وحكام لم يقتنع بأحدها. وعلى أقلّ تقدير لم يشر الفارابي إلى أنموذج من الحكم كان سائداً على أنّه فاضل، من خلال كتاباته وتنقلاته، من بغداد إلى الشام، إلى حلب، وحتى مصر. وكان على قناعته؛ نتيجة لإصراره، بأنّه يضع كتاباً في الفلسفة النظرية والعملية، مستوحى من الدين والفلسفة، منسجم مع القيم الدينية المتعالية، خاصة للحاكم العادل، الذي يجب أن يتمتع بالصفات الشخصية والقيمية التي تؤهّله منح السعادة لأبناء مدينته الفاضلة. ويكون فضلها مستمداً من قدرة نفوس أهلها وقواهم، من الوصول إلى اختياره؛ بطواعية، وقناعة إرادية.

يقول الفارابي، في مطلع كتابه «فصول المدني»: «هذه فصول منتزعة، تشتمل على أصول كثيرة، من أقاويل القدماء، فيما ينبغي أن تدبّر به المدن وتعمّر، وتصلح به سير أهلها، ويسدّد بها نحو السعادة»^(١).

[ف] للنفس صحّة ومرض، كما للبدن صحّة ومرض. وصحّة النفس: أن تكون هيئاتها... تفعل بها أبدأ؛ الخيرات، والحسنات، والأفعال الجميلة،

(١) الفارابي، أبو نصر: فصول المدني، تحقيق D.M. Dunlop، لندن، طبعة جامعة كامبريدج، ١٩٦١م،

ومرضها: أن تكون هيئاتها تفعل بها أبداً؛ الشرور، والسيئات، والأفعال القبيحة». وكذلك البدن، حيث يقول الفارابي: «المعالج للأبدان هو: الطبيب، والمعالج للنفوس هو: الإنسان المدني، ويسمى أيضاً الملك... وليس للطبيب بما هو طبيب أن ينظر في صحة النفس ولا في مرضها على هذا الوجه، بل للمدني والملك...»^(١).

و«كذلك المدني والملك الذي يعالج الأنفس، يحتاج أن يعرف النفس بأسرها... من نقائص ورتائل، أو خيرات وفضائل»^(٢).

ويشبهه الفارابي ذلك «بالطبيب» الذي عليه أن يعلم مقدار الحاجة في صناعته، «والنجار» من أمر الخشب، «والحداد» من أمر الحديد؛ مقدار ما يحتاج إليه كل منهما في صناعته، كل بحسب مهنته وعقله؛ لخصائص المهنة من الناحيتين الكميّة والكيفيّة...؛ وذلك لمعرفة ما تساويه من قيمة أو قيم، بحسب الصناعة.

يقول الفارابي: «إن الأجسام منها: صناعية. ومنها: طبيعية. فالصناعية، مثل: السرير، والسيوف، والزجاج، وما أشبه ذلك. والطبيعية، مثل: الإنسان، وسائر الحيوان. وكل واحد منها يلتزم من شيئين: أحدهما: مادة. والآخر: صورة المادة. فالمادة: مثل، الخشب في السرير. والصورة، مثل: الشكل في السرير، وهو: تربيعة، أو تدويره، أو غير ذلك. فالمادة هي بالقوة سرير، وبالصورة تصير سريراً بالفعل». وهكذا تقاس قيمة كل منهما؛ فكل منهما له قيمة، قبل السرير أو بعده»^(٣).

ولعلّ الفارابي يضرب عميقاً، في تحليله لأصل زرع القيم في قوى النفس وأجزائها، التي هي من مهمّة المدني أو الملك؛ لتصبح صورة القيم؛ كأنها صورة أجزاء النفس. فيقول بعد أن يسمّى ما للنفس من

(١) الفارابي، فصول المدني، م.س، ص ١٠٤.

(٢) م.ن، ص ١١٢-١١٣.

(٣) م.ن، ص ١٠٥.

أجزاء وقوى عظمى، وهي خمسة، من: غذاء، ونمو، ومولد، ...؛ حتى يكون كمال الجسد منسجم مع كمال النفس؛ بحيث تصبح هذه القوى قادرة على تقدير كل حاجة، وكلّ عضو من الأشياء؛ بما يشاكله، وبما يعطيه القدرة على الاستمرار والاكتفاء والراحة؛ وذلك غاية الخير المكاني، وغاية القيمة للموجود في الجسد، وللجسد الطبيعي أيضاً. حتى يصل إلى القوى ما فوق الحسيّة؛ أي الحواس الداخلية، من: تخيل، وذاكرة، وشوق... التي بها تعرف التفضيلات والاجتنابات. يقول الفارابي: «والقوة النزوعية هي: التي يكون بها نزاع الحيوان إلى الشيء، وبها يكون الشوق إلى الشيء، والكرهية له، والطلب، والهرب، والإيثار، والتجنب، والغضب، والرضى، والخوف، والإقدام، والجبن، والقسوة، والرحمة، والمحبة، والبغضة، والهوى، والشهوة، وسائر عوارض النفس. وآلات هذه القوة (النزوعية) هي: جميع القوى التي بها تتأتى حركات الأعضاء كلّها، والبدن بأسره، مثل: قوة اليدين على البطش، وقوة الرجلين على المشي... وهكذا»^(١).

إنّ ذروة معرفة وظائف النفس وقواها، في مجال القيم، تصل عند الإنسان، برأي الفارابي، إلى قدرة التمييز الكلّي فيما بينها؛ لانسجامها مع القيم التي حملها ويريد تطبيقها، مع القوة الناطقة الإنسانية التي هي العقل. يقول الفارابي: «والقوة الناطقة هي التي بها يعقل الإنسان، وبها تكون الرويّة، وبها يقتني العلوم والصناعات، وبها يميّز بين الجميل والقبيح من الأفعال»^(٢)؛ من كمّ أو كيف، أو خير أو شر، أو حكمة أو فساد عقل ومغالطة وعناد؛ ناتجة عن خطأ، أصله يكمن في التقصير عن تحصيل الفضيلة.

إنّ القيم هي: ما اعتادت عليه النفس؛ من معارف بسيطة اجتماعية كانت أو تعليمية، نظرية كانت أو عملية. وبالنسبة للفارابي فإنّ الفضائل

(١) الفارابي، فصول المدني، م.س، ص ١٠٧.

(٢) م.ن، ص ١٠٨.

القيمية هي صنفان: «خلاقية ونطقية». النطقية هي: فضائل الجزء الناطق، مثل: الحكمة، والعقل، والذكاء، وجودة الفهم. والخلقية هي: فضائل الجزء النزوعي، مثل: العفة، والشجاعة، والكرم، والعدالة... والفضائل والردائل الخلقية إنما تحصل وتتمكّن في النفس؛ بتكرير الأفعال الكائنة عن ذلك الخلق مراراً كثيرة، في زمان ما، وباعتياد لها. فإن كانت تلك الأفعال خيرات؛ كان الذي تحصل لها هو الفضيلة، وإن كانت شروراً؛ كان الذي يحصل لها هو الرذيلة...^(١). وهذا ما ينسجم تماماً، مع القانون التربوي الإسلامي؛ من حيث تعويد الإنسان والعقل الإنساني على أمور وعقائد تصبح ملكة في عقله وفي سلوكه، عند قيامه بها. روي عن الرسول الأكرم ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ إِلَّا أَنْ أَبَوَاهُ يَهُودَانَهُ أَوْ نَصْرَانَهُ أَوْ يَمَجَّسَانَهُ»^(٢).

فهو أمر زائد على الفطرة؛ كون الفطرة الإنسانية تعيش الحالة الأولى؛ وهي: التسليم بإله واحد متعال خالق للكون والموجودات. يقول الفارابي في صدد بيان القيم المكتسبة خاصّة، المتعلقة بفضيلة ما أو خير ما، من خلال تفسير طبيعة الأفعال والاستعدادات: «لا يمكن أن يفطر الإنسان من أول أمره بالطبع على فضيلة أو نقيصة، كما لا يمكن أن يفطر الإنسان بالطبع حائكاً ولا كاتباً... وأن الأفعال ناتجة عن استعداد طبيعي لهذا وذاك»^(٣)، يقول الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾^(٤) وَإِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا^(٥).

وتكمن المحدّدات لطبيعة الفضيلة والرذيلة، والخير والشر؛ بالقيم الأخلاقية، التي هي عنوان الفضائل الإنسانية المتجسّدة في الاجتماع الإنساني وفي السلوك الروحاني حيث تشكل القيم مجموع الاستعدادات

(١) الفارابي، فصول المدني، م.س، ص ١٠٨.

(٢) الطبرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، تحقيق وتعليق وملاحظات السيد محمد باقر الخراسان، لا.ط، النجف الأشرف، دار النعمان للطباعة والنشر، ١٣٨٦ هـ/ق/ ١٩٦٦ م، ج ٢، هامش ص ١٧٥.

(٣) الفارابي، فصول المدني، م.س، ص ١٠٩.

(٤) البلد: ١٠.

التي تبرز في الوعي وتتلور داخل الجماعة؛ بوصفها مفاهيماً عالمية، بحسب ضررها أو نفعها المادّي والمعنوي، أو النظري والعملي. وربما تكون قيمة الاعتقاد تكمن في أنّها تمهّد لقيام شكل من أشكال التفكير، الذي يقود الإنسان إلى السعادة والقناعة المقرّبة للإنسانية الفرد وروحانيّته. يقول الفارابي: «[إنّ] الهيئات الطبيعية والاستعدادات نحو الفضيلة والرذيلة، متى انضافت إليها الأخلاق المشاكلة لها، وتمكّنت بالعادة (بالمملكة العقلية والسلوك)؛ كان ذلك الإنسان، في ذلك الشيء، أتمّ ما يكون، وما تمكّن فيه من الهيئات؛ يكون زواله عن الإنسان، خيراً كان الذي تمكّن فيه أو شراً، أمراً عسيراً... ومتى وجد في وقت من الأوقات من هو معدّ بالطبع نحو الفضائل كلّها إعداداً تاماً، ثمّ تمكّنت فيه؛ كان هذا الإنسان فائقاً في الفضيلة للفضائل الموجودة في أكثر الناس، حتى يكاد يخرج عن الفضائل الإنسانية، إلى ما هو أرفع طبقة من الإنسان. وكان القدماء يسمّون هذا الإنسان «الإلهي»... وهو الأوّل، متى وُجد؛ كان عندهم أرفع مرتبة من أن يكون مدنياً يخدم المدن، بل أن يدبّر المدن كلّها، وهو الملك في الحقيقة»^(١).

هذا الأوّل، الذي قصده الفارابي في كافة كتبه، هو: الفيلسوف، أو الإمام؛ حاكم المدينة الفاضلة، وهو المشرّع فيها، بعد القدماء وكتبهم، وهو مانحها الوجود الحقيقي؛ لأنّه يعتبر الإنسان الكامل في اللحظة الزمنية التي يكون فيها. وهذا الرئيس مُعدّ، كما يؤكّد الفارابي، لأن يكون جوهر المدينة التي تخضع له كلّ المقولات الحاكمة لقيم المدينة، من: كمّ، وكيف، وملكيّة، وعرض... وهو قلب المدينة، حيث حياة كلّ فرد من أفراد المدينة يخضع في ديمومته؛ من خلال انسياب دم هذا القلب في وجوده. وبدون هذا الرئيس تعيش المدينة في قيم الخسّة، والسقوط، والتغلب، والجهل، والضرورات الدنيوية، والتمتّع باللذات، والسقوط عن

(١) الفارابي، فصول المدني، م.س، ص ١١٠-١١١.

الخيرات الحقيقية للإنسان الحقيقي. لهذا وضع الفارابي في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» قائمة بأسماء المدن المضادة للمدينة الفاضلة، وأعطائها مسميات واضحة القصور والانحطاط المعنوي والروحي والخيري، مثل: المدينة الضالّة، أو المدينة الفاسقة، أو المدينة المبدّلة، أو النذالة. ورؤساء هذه المدن وملوكها هم أبعد ما يكون عن الحكمة والسعادة والفضيلة، وما خطرت السعادة على بالهم^(١).

يقول الفارابي: «[إنّ] الفضيلة النظرية والفضيلة الخلقية العظمى والصناعة العملية العظمى إنّما سبيلها أن تحصل في من أعدّها بالطبع... فإذا حصلت في إنسان... هذه القوّة العظيمة، ينبغي أن تكون له قدرة على تحصيل جزئيات الأمم والمدن»^(٢). «ومن الناحية العملية، فإنّ (الملك) هو: ملك بالمهنة الملكية وبصناعة تدبير المدن... وغرضه ومقصوده من صناعته، أن يفيد نفسه وسائر أهل المدينة السعادة الحقيقية، وهذه هي الغاية والغرض من المهنة الملكية»^(٣).

إنّ أهميّة البناء الفلسفي للفارابي تكمن في أنّه ربط مسألة القيم الجزئية في البناء الكلي للقيم الفلسفية الإلهية، أو الفلسفة المتعالية، والتي غايتها تجسيد الفضائل في المدينة. وفي بنائه الفلسفي ربط التخلّق بأخلاق الله في الإنسان في حقيقة الوصول إليه، من خلال المعصوم الذي يقوم «بمهنته»؛ من أجل تجسيد القيم الإلهية. وهذا ما سعى إليه، عبر الفيلسوف أو الملك أو واضع النواميس أو الإمام، ذاك الحامل للعقل الكلي أو العقل القدسي، كما أسماه ابن سينا. وهذا ما تشير إليه شروط الحاكم والصفات التي وضعها الفارابي، من خلال تعرّفه إلى العقلاء من أهل المدينة الفاضلة، التي كانت عنوان نشاطه الفلسفي.

الصفات أو الفضائل التي يجب أن يتمتع بها رئيس المدينة الفاضلة:

(١) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق ريتشارد فالتزر، لندن- أوكسفورد، منشورات جامعة أوكسفورد، ١٩٨٥، باب ١٥، ص ٢٦٠.

(٢) الفارابي، أبو نصر: تحصيل السعادة، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٩٥م، ص ٦٩.

(٣) الفارابي، فصول المدني، م، س، ص ١٥٩.

وهذه الفضائل هي: المحدّدات الرئيسة؛ لإمكانية نشأة قيم أخلاقية، تتناسب مع الحاكمية وتطبيقات العدالة في الواقع الاجتماعي، ومن خلالها يمكن الحديث عن العدالة الموصلة إلى مجتمع سعيد. وإذا لم تتوافر هذه الصفات، تحديداً الأولى، فإنّ المدينة تعيش في الضلال، وتبتعد عن الحقائق، وعن القيم الأخلاقية التي تجعل الإنسان إنسانياً. وبدونها يكون الإنسان أقرب إلى «السبعية» و«الجهالة»، وتحكم الحواس بدل العقل والنفس، وتحكم الغريزة والجوارح بدل الفطرة العقلية السليمة. وهذه الصفات التامة، هي: الفطرة، والعقل والتعقل. كما أنّ الأفعال الإرادية المدركة والأمره للحواس هي ضمانه لاستمرار الخير في المدينة الفاضلة الحاضنة للقيم، النابعة من ثقافة ربط الدنيا بالآخرة. هذا ما سعى الفارابي إليه؛ من أجل تطبيق العقل والمعقولات (عقل الرئيس) على واقع عملي لأهل المدينة الذين يصبحون أدوات العدالة، يعيشون لها وبها، فينجح الرئيس والمرؤوس والمدينة. هذه الصفات الكلية التالية، هي محدّدات القيم:

١. أن يكون بالفطرة والطبع معداً لها.
٢. أن يكون بالهيئة والملكة الإرادية مؤهل للقيام بالرئاسة. وفي هذا الشرط أو الصفة ما يشير إلى ملكة التمييز ما بين الخير والشر الزماني، بحيث يخضع لتطوّرات الأحداث والأمكنة وما يحصل عليها من تغيير في الدهور والعقول، فتبقى ملكة الحكم قادرة على استيعاب المتغيّرات والنظرة إلى القيم الحاكمة بعقل تدبيري فائق، بما لا يؤثر على عدالته وعلى السعادة، التي هي من حقّ المدينة عليه.
٣. أن يكون تامّ الأعضاء، بحيث لا يعيقه شيء عن مباشرة الرئاسة، وأن يكون جيّد الفهم والتصور لكلّ ما يُقال له، بحسب قصد القائل.
٤. أن يكون جيّد الحفظ لما يسمعه ولما يراه.

٥. أن يكون ذكياً جيّد الفطنة، إذا رأى الشيء بأدنى دليل فطن إلى المدلول.
٦. أن يكون حسن العبارة والبيان.
٧. أن يكون محبباً للعلم وأهله، ومبغضاً للجهل وأهله.
٨. أن لا يكون شرهاً في المأكل والمشروب والمنكوح.
٩. أن يكون محبباً للصدق وأهله ومبغضاً للكذب وأهله.
١٠. أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا هيّنة عليه.
١١. أن يكون محبباً للعدل وأهله، ومبغضاً للجور وأهله.
١٢. أن يكون شجاعاً مقداماً غير خائف، ولا يضعف أمام المحن^(١).

(١) الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، م.س، ص ٢٥٥؛ ويراجع أيضاً: الفارابي، أبو نصر: تحصيل السعادة، تحقيق جعفر آل ياسين، بيروت، دار الأندلس، ١٩٨١، ص ٩٥.